بسم الله الرحمن الرحيم

البحر المفتوح

الحياة الاقتصادية في عالم البحر الأبيض المتوسط القديم من العصر الحديدي حتى ظهور روما

تأليف

J. G. MANNING

ترجمة

د. مصطفى محمد قاسم

أستاذ مساعد في مكتب معالي مدير الجامعة

جامعة الملك سعود

دار جامعة الملك سعود للنشر

KING SAUD UNIVERSITY PRESS

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ المملكة العربية السعودية

ح دار جامعة الملك سعود للنشر، ١٤٤١هـ (٢٠٢٠م)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماتينغ، جوزيف غلبرت

البحر المفتوح: الحياة الاقتصادية في عالم البحر الأبيض المتوسط القديم من العصر الحديدي حتى ظهور روما./ جوزيف غلبرت ماتينغ؛ مصطفى محمد قاسم.– الرياض، ١٤٤١هـ

٦١١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢ – ٨٤١– ٥٠٧ – ٦٠٣ – ٩٧٨

١– اليونان – الأحوال الاقتصادية ٢– البحر المتوسط – تاريخ أ. قاسم، مصطفى محمد (مترجم) ب. العنوان

ديوي ٣٣٠,٩٤٩٥ ١٤٤١/٧٢٩٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/٧٢٩٨

ردمك: ٢ – ٨٤١– ٥٠٧ – ٦٠٣ – ٩٧٨

هذه ترجمة عربية محكمة صادرة عن مركز الترجمة بالجامعة لكتاب:

The Open Sea The Economic Life Of The Ancient Mediterranean Word From The Iron Age To The Rise Of Rome

By: J. G. MANNING

© 2018 by Princeton University Press

وقد وافق المجلس العلمي على نشرها في اجتماعه الثامن للعام الدراسي ١٤٤١هـ المنعقد بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٤٤١هـ الموافق ٩/ ١٢/ ٢٠١٩م.

جميع حقوق النشر محفوظة. لا يسمح بإعادة نشر أي جزء من الكتاب بأي شكل وبأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو آلية بما في ذلك التصوير والتسجيل أو الإدخال في أي نظام حفظ معلومات أو استعادتها بدون الحصول على موافقة كتابية من دار جامعة الملك سعود للنشر.

دار جامعة الملك سعود للنشر
KING SAUD UNIVERSITY PRESS

مقدمة المترجم

يقدم كتاب "البحر المفتوح" تاريخا جديدا كبيرا للحياة الاقتصادية في عالم البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحديدي، من التجارة الفينيقية إلى الحقبة الهلنستية وبداية السيادة الإمبراطورية لروما. اعتمادا على مدى واسع من المصادر القديمة وأحدث ما توصل إليه الفكر الاجتماعي، يذهب مانينغ إلى أن البحث عن "اقتصاد قديم" وحيد متوهم قد حجب تنوع الخبرة المعاشة في عالم البحر الأبيض المتوسط، ومن ضمن ذلك التغيرات في الاقتصادات السياسية على مر الوقت والاختلافات في التصورات الثقافية للمِلكية والنقد، ويبيّن كيف أصبحت اقتصادات المنطقة مترابطة أكثر فأكثر خلال هذه الفترة.

يذهب الكتاب إلى أن الأساس لفهم التغير الاقتصادي والاجتماعي السريع خلال العصر الحديدي يتمثل في العديد من الحلول الاقتصادية والسياسية التي ابتكرتها الثقافات المختلفة، وأنماط التلاقح الثقافي، والتضادات البيئية الحادة بين مصر والشرق الأدنى واليونان وروما. يتقصى الكتاب القوى الدافعة طويلة المدى للتغير، مثل المناخ، جنبا إلى جنب مع المؤسسات الاقتصادية للبحر الأبيض المتوسط ما قبل الحديث: العملة والنقد والزراعة والمِلكية الخاصة. كما يتقصى دور التطور الاقتصادي والدول والمؤسسات القانونية في الاقتصادات المختلفة في المنطقة.

يقدم الكتاب تاريخا اقتصاديا مغايرا وجديدا لعالم البحر الأبيض المتوسط القديم، كاشفا أن أصول الاقتصاد الحديث ترجع إلى ما هو أعمق تاريخيا من اليونان وروما، إذ يدمج الكتاب مصر والشرق الأدنى في اقتصادات البحر الأبيض المتوسط، ويؤكد أن الاقتصادات الكلاسيكية اليونانية-الرومانية بُنيت على مقومات ومؤسسات من اقتصادات مصر والشرق الأدنى القديمين.

لقد دخل التاريخ الاقتصادي حلقة مفرغة من الجدل العقيم حول ما يمكن تسميته "الاستزراع"، أي استزراع الاقتصاد الحديث في العصور القديمة الكلاسيكية اليونانية-الرومانية، إذ

انقسم المؤرخون ودارسو الاقتصاد بين من يرد نشأة الاقتصاد الحديث إلى الاقتصادات الكلاسيكية، ويعد هذه الاقتصادات بالتالي "حديثة" في العصر القديم، ومن يرفضون أن هذه الاقتصادات قد اشتركت في أي شيء مع الاقتصاد الحديث. وفيما يتعلق باقتصادات الشرق الأوسط القديم (باستخدام المصطلح الحديث الذي يجمع شمال أفريقيا وغرب آسيا، حيث توجد مصر والشرق الأدنى القديمان)، فإن هناك إجماعاً على أنها لم تشترك في شيء، لا مع الاقتصادات الحديثة ولا مع الاقتصادات الكلاسيكية، فكانت مصر- في مذهبهم- مثالا للركود التقني والاقتصادي، وظهرت نظريات تفسر ذلك منها نظرية نمط الإنتاج الشرقي ونظرية الاستبداد الشرقي ونظرية الوصول المحدود في مقابل نظرية تطور الديمقراطية الأثينية.

كان هذا الجدل في بدايته تنويريا وكاشفا لمآلات تطور هذه المجتمعات في العصر الحديث أو حتى اللحظة الراهنة، إذ استخدم التاريخ الاقتصادي (والسياسي والثقافي والاجتماعي ضمنا) لتفسير التفاوت الحديث والمعاصر بين هذه المجتمعات، وإن كانت هناك شبهة أنه يفعل العكس، بمعنى أنه يفسر التاريخ بناء على مآلات الحاضر. لكن حتى مع أخذ هذه الشبهة القاتلة الأخيرة في الحسبان، ظل تناول التاريخ الاقتصادي، وتوسعا علم الاجتماع التاريخي، كاشفا وتنويريا، وينتج نظريات كبرى وسرديات كبرى، ويجذب كبار مفكري العالم ومنظريه من أمثال ماكس فيبر وكارل ماركس وكارل فيتفوغل وكارل بولاني وكارل بوتزر وموزيس فينلي ومايكل مان وغيرهم ممن حاولوا قراءة التاريخ الإنساني والخلوص إلى نظريات تفسر الوضع الراهن للدول والمجتمعات بالرجوع إلى تطورها التاريخي "الفارق".

لكن متى نشأ جدل "الاستزراع" العقيم للاقتصاد الحديث في العصر القديم؟ نشأ هذا الجدل ضمن تطور مفهوم "الافتراق" الذي فطن المفكرون الغربيون إلى أنه باعد بين مجتمعات أوروبا الغربية وبقية العالم بداية من الثورة الصناعية إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي الفكرة عينها التي طورها كينيث بوميرانز Kenneth Pomeranz مؤخرا إلى مفهوم "الافتراق الكبير" great divergence. تذهب هذه النظرية، وهي مُحِقّة في مذهبها، إلى أن افتراقا كبيرا في الأداء الاقتصادي العالمي حدث حول عام ١٨٠٠، حيث افترقت مجتمعات أوروبا الغربية عن بقية العالم في الأداء الاقتصادي، بفضل الثورة الصناعية والابتكار التقني والأسواق المفتوحة والأفكار الجديدة مثل آدم

سميث وغيرها. وحدث جدل الاستزراع مع تبني هذه الفكرة ومناقشتها وتطويرها، فمن باب تفسير فكرة الافتراق، أخذ المؤرخون ودارسو الاقتصاد- دون وعي في الغالب- يرجعون بجذور الافتراق إلى ما قبل عام ١٨٠٠، وصولا إلى العصر القديم.

فبغرض تفسير منشأ الافتراق الذي حدث في نحو عام ١٨٠٠ في الأداء الاقتصادي بين "الغرب" و"الشرق" أو "الشمال" و"الجنوب"، أخذ المؤلفون يعودون بهذا الافتراق إلى عصور أقدم، حتى أصبحوا- دون وعي- يطالبون النظم الاقتصادية "القديمة" بأن تكون "حديثة"، ويطالبون العصر "القديم" بأن يكون "حديثا"، وهي محاولات عقيمة تنسف التحقيبات الزمنية المتعارف عليها، وتقع في حبائل الإسقاط التاريخي أو المفارقة التاريخية، كأنها تحاكم العصر القديم لأنه كان قديما ولم يكن حديثا، وكأنها تحاكم العصر القديم لأنه لم ينتج التقنيات والابتكارات "الحديثة" أو الصانعة للعصر الحديث، أو لأنه لم ينتج الفكر الاقتصادي "الحديث" أو السوق أو النقل الحديثين.

والأغرب من ذلك، وهو ما يفوت على كل المؤرخين الاقتصاديين ودارسي الاقتصاد القديم الغربيين، هو أن هذا الاستزراع يسقط حقبة ومكانا تاريخيين، تليا اقتصادات "الركود" تاريخيا ومكانيا، ويفترض أنهما كانا المدخل إلى الاقتصاد الحديث، وهي منطقة الشرق الأوسط الإسلامي (وتوسعا العالم الإسلامي من طنجة إلى آتشيه) خلال العصور الوسطى. شهدت هذه المنطقة (العالمية في مداها) خلال القرون من السابع إلى الخامس عشر (تتطابق زمنيا مع عصور الظلام الأوروبية) سوقا عالميا، نشط خلاله تجار خاصون من مصر والمشرق واليمن والهند وجنوب شرق آسيا، وأنتجوا أفكارا وممارسات وتقنيات كانت "حديثة" بكل معنى الكلمة. يكشف تجاهل تلك الفترة وذلك المكان نقيصة "الانحياز لأوروبا" أو "التمركز حول أوروبا" التي يكتب المؤلفون الغربيون كثيرا عن تجاوزها، لكنهم لا يتجاوزونها أبدا، إما بسبب التحقيب الذي يعتبر العصور الوسطى عصور ظلام، أو بسبب ضيق الأفق في الكتابة التاريخية والتناول التاريخي، أو بسبب عدم إتاحة مصادر تلك الحقبة وذلك المكان للمؤلفين الغربيين، مثل إتاحة المصادر الأقدم المكتوبة باللغات الأوروبية.

أين موقع الكتاب الحالي من هذا الجدل؟ ينتمي الكتاب إلى هذا الجدل ويسهم فيه، لكنه يفترق عنه في محاولة إثبات أن اقتصادات الشرق الأوسط القديم، تحديدا اقتصاد مصر القديمة، وتوسعا

اقتصاد الشرق الأدنى القديم، لم تكن تختلف عن الاقتصادات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، بل كانت مكونات مترابطة ضمن عالم اقتصادي واحد وثقافات تبادلت التأثير.

يضع الكتاب الحالي مصر والشرق الأدنى ضمن الاقتصاد القديم جنبا إلى جنب مع الاقتصادات الكلاسيكية، مبرزا عمليات التأثير والتأثر بين الحضارات القديمة والاقتصادات الكلاسيكية، فيؤكد أن مصر كانت خلال الحقبتين السايسية والبطلمية جزءاً من البحر الأبيض المتوسط، وإن مدن الدلتا المصرية كانت أقرب إلى وضعية الدول المدينية المستقلة، وأن وجود اليونانيين في مصر عزز اندماجها في عالم البحر الأبيض المتوسط.

يعتمد الكتاب على أدلة جديدة في دراسة التاريخ الاقتصادي، من أهمها بيانات المناخ القديم المشتقة من العينات اللبية الجليدية وعينات الرواسب من البحيرات والكهوف، ويربط هذا الأرشيف الطبيعي بالأرشيف البشري، من خلال ربط أحداث طبيعية ومناخية مثل البراكين في نصف الكرة الأرضية الشمالي، المستمدة من عينات لبية جليدية من جزيرة غرينلاند على سبيل المثال، بمستوى فيضان نهر النيل كما سُجل في الأرشيف البشري من البرديات وعلم الآثار.

يُنظَم الكتاب بحسب الموضوعات، إذ لا يقدم سردية واحدة جامعة، بل سلسلة من المقالات تتناول موضوعات مختلفة مترابطة. ينقسم الكتاب إلى بابين، يبدأ الباب الأول المعنون "التاريخ والنظرية" بمقدمة ترجع إلى جذور الجدل حول طبيعة "الاقتصاد القديم"، كما تطور على نحو متلازم مع مجال علم الاقتصاد، ويقدم الفصل الثاني بعنوان "الاقتصادات القديمة: مراجعة من التجار الفينيقيين حتى ظهور الإمبراطورية الرومانية" مناقشة عامة لتاريخ الألف الأول قبل الحقبة المشتركة ومراجعة موجزة للمصادر المتاحة لفهم اقتصادات البحر الأبيض المتوسط، ثم يتحول في الفصل الثالث بعنوان "الزمان والمكان والجغرافيا واقتصادات البحر الأبيض المتوسط القديم" إلى أحد أصعب جوانب دراسة الاقتصادات القديمة، وهو ما يسميه المؤلف مشكلات تعيين الحدود الزمنية–المكانية.

وفي الباب الثاني بعنوان "البيئة والمؤسسات"، يتحول المؤلف إلى فحص المؤسسات الأساسية في اقتصادات البحر الأبيض المتوسط القديم، ويناقش حركية الحث التبادلي بين البيئة والمؤسسات الاقتصادية والعوامل التطورية التي وقفت وراء التغير المؤسسي. تشكل الزراعة والعمل، وهما موضوع الفصل الرابع، الأساس لكل الاقتصادات ما قبل الحديثة، وتوضح دراسة مقارنة موجزة هنا

أنه كان هناك العديد من الحلول المؤسسية لتنظيم الإنتاج الزراعي، وهي حلول اعتمدت في معظمها على الهِبات البيئية والظروف المناخية المتباينة لحوض البحر الأبيض المتوسط، وهي الظروف التي يتقصاها المؤلف بمزيد من التفصيل في الفصل الخامس بعنوان "حدود الاقتصادات ما قبل الحديثة: البيئة والمناخ والتغير المناخي"، الذي يناقش العلاقة بين الحدود المادية لعالم البحر الأبيض المتوسط والمناخ والتغير المناخي والسكان وعلاقتها بالاقتصادات السياسية للعالم القديم، ودور التغير المناخي باعتباره إحدى القوى الدافعة للتغيير الاجتماعي.

يتقصى الفصل السادس الأفراد والمنازل باعتبارهم فاعلين اقتصاديين، وهنا يناقش المؤلف بإيجاز السكان والعلاقة بينها وبين "الدولة" التي شهدت تنوعا كبيرا في الأحجام والحلول المؤسسية السياسية. ثم يأتي الفصل السابع بعنوان "تطور الفكر الاقتصادي في العالم القديم: النقد والقانون والمؤسسات القانونية"، ليتقصى كيف تطورت التغيرات في مفهوم النقد والنظام القانوني بالتلازم مع تزايد أنماط التلاقح الثقافي. ثم يناقش الفصل الثامن والأخير بعنوان "النمو والابتكار والأسواق والتجارة"، المجالات الأساسية للاقتصادات القديمة التي كانت أساسية لفهمها، وكانت- وما تزال- خلافية ومحل جدل محتدم. ويختتم الكتاب بخاتمة توجز ما أراد المؤلف إثباته بشأن الاقتصادات القديمة عموما، واقتصاد مصر والبحر الأبيض المتوسط تحديدا، ومجالات الدراسات المستقبلية ونوعية الأدلة الجديدة التي يمكن الإفادة منها.

أخيرا، يتمنى المترجم أن يكون الكتاب الحالي إضافة إلى المكتبة العربية في مجال التاريخ الاقتصادي وتاريخ البحر الأبيض المتوسط والتاريخ الاقتصادي لمصر والشرق الأدنى، ويشكر المترجم مركز الترجمة بجامعة الملك سعود على جهوده في تيسير عملية الترجمة، ابتداء من الحصول على موافقة الناشر الأجنبي حتى تحكيم الكتاب وإقراره للنشر، فللمركز وإدارته ومنسوبيه كل الشكر على تعاونهم ودعمهم الذي لولاه لما ظهر هذا العمل المترجم إلى النور.

المترجم

تصدير

بدأتُ التفكير قبل بضع سنوات، بتعبير أحد كبار دارسي الاقتصاد خلال القرن العشرين، في تأليف "كتاب صغير حول موضوع كبير"[1]. وجاءت النتيجة النهائية أضخم وأبعد قليلا عما جال في خاطري في الأصل، لكنني نجحت- في اعتقادي- في وضع كتاب كبير بعض الشيء حول موضوع مهول في الوقت الراهن. يقدم الكتاب مناقشة عامة، وأكرر أن الكتاب يقدم مناقشة عامة وحسب، للنظم الاقتصادية الرئيسة في عالم البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الأول قبل الحقبة المشتركة، من بداية العصر الحديدي حتى نهاية الحرب البونيقية الثانية[1] (نحو عام ٢٠١ ق.ح[2])، وهو الوقت الذي شهد تحولا في القوة السياسية والعسكرية، كان البداية لعملية الهيمنة الرومانية على حوض البحر

(١) يُتخذ القرن الثاني عشر قبل الحقبة المشتركة عموما بدايةً للعصر الحديدي، وإن اختلفت بدايته من مكان لآخر بحسب استعمال الحديد هنا وهناك، وقد بدأ في الشرق الأوسط والهند واليونان بين عامي ١٥٠٠ و١٠٠٠ ق.ح، وبدأ متأخرا عن ذلك في أوروبا. [المترجم]

الحروب البونيقية Punic Wars (٢٦٤-١٤٦ ق.ح) سلسة من ثلاث حروب كبرى وقعت بين روما وقرطاج، سميت على الاسم الذي أطلقه الرومان على القرطاجيين بسبب أصولهم الفينيقية Poenici، وقعت على أراضي أوروبا وأفريقيا وصفحة البحر الأبيض المتوسط، انتقل النصر خلالها بين الطرفين، لكن كان النصر النهائي لصالح روما التي أزالت قرطاج من الوجود بعد أن كانت قوة عظمى في عالم البحر الأبيض المتوسط. [المترجم]

(٢) لم يعد النظام التقليدي لتقسيم التاريخ إلى ما قبل ميلاد المسيح (ق.م) وما بعده (م) يلقى استحسانا بسبب تمرسه داخل تقاليد دينية بعينها، لذلك أخذ المؤلفون يستعيضون عنه بمفهوم الحقبة المشتركة common era التي تبدأ أيضا من ميلاد المسيح، وبناء على ذلك يشير الاختصار "ق.ح" إلى "قبل الحقبة المشتركة" before the Common Era; B.C.E. (بديلا عن "ق.م")، ويشير الاختصار "ح.م" إلى "من الحقبة المشتركة" Common Era; C.E (بديلا عن "م"). [المترجم]

الأبيض المتوسط كاملا. معنى ذلك أنني أتبنى نطاقا للتحليل أكبر مما هو معتاد[٣]، إذ أغطي زهاء ثمانمائة سنة من التاريخ المعقد، ما قد يجعل الكثير من المؤرخين يرتابون في قلة التفاصيل، بل إنني في بعض الموضوعات، مثل الإدارة المنزلية[٤]، أرجع أبعد من ذلك زمنيا، لإثبات أشكال الاستمرارية البنيوية المهمة. يساعد "النطاق المتوسط" meso-scale الذي توفره فترة الثمانمائة سنة في جمع التخصصات الفرعية الكثيرة في مجال التاريخ القديم على طاولة واحدة، وذلك لطرح السؤال: كيف يمكن أن نفهم التغيرات الكبرى التي شهدها عالم البحر الأبيض المتوسط في أنحائه كافة خلال هذه القرون؟ علما بأن كتاب موزيس فينلي المؤثر "الاقتصاد القديم" (Moses Finley, The Ancient Economy, 1973) قد وضع نموذجا للاقتصادات الكلاسيكية يغطي ألفا وخمسمائة سنة، من بداية الحضارة اليونانية حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية[٥].

على أنني- مع ذلك- لا أسرد قصة وحيدة في هذه الصفحات، بل بالأحرى أريد أن أجدل العديد من القصص المختلفة التي أدت إلى توحيد البحر الأبيض المتوسط تحت سيطرة روما. ومع أن النطاق الزمني عند فينلي كان صحيحا نوعا ما، فإنه تغافل تماما عن توسع العصر الحديدي المبكر

(٣) يشير النطاق الزمني timescale إلى الفترة التي يغطيها التحليل التاريخي، والمصطلح مأخوذ من التأريخ الجيولوجي الذي يقسم تاريخ الأرض إلى عصور أو حقب طويلة. وتستخدم كلمة "النطاق" وحدها للإشارة إلى الامتداد الزمني أو المكاني بحسب السياق. [المترجم]

(٤) بناء على تعريفه في الفصل السادس من الكتاب الحالي، يشير مصطلح المنزل household ومشتقاته إلى شخص واحد أو أكثر يعيشون تحت سقف واحد ويتشاركون الطعام والمعيشة، قد تربطهم أو لا تربطهم صلة قرابة، مثل الأسرة النووية وخدمها وأتباعها، ويمكن أن يشمل المفهوم أيضا ممتلكات الأسرة. وينصرف المصطلح تحديدا إلى الأسرة التي تعيش في بيت واحد، وأيضا إلى بيتها المادي. [المترجم]

(٥) العالم الكلاسيكي أو العصر القديم الكلاسيكي Classical Antiquity حقبة طويلة من التاريخ الثقافي المتمركز حول البحر الأبيض المتوسط للحضارتين المترابطتين اليونان وروما القديمتين اللتين تعرفان معا باسم العالم اليوناني- الروماني، وهي فترة ازدهار المجتمعين اليوناني والروماني وتأثيرهما الكبير على أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، تبدأ من أول الشعر اليوناني المدون لهوميروس إبان القرنين الثامن والسابع قبل الحقبة المشتركة، مرورا بظهور المسيحية، حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية. [المترجم]

وغرب آسيا ومصر والحقبة الهلنستية عموما[٦]. كان الألف الأول قبل الحقبة المشتركة فترة من التحول الجذري في التاريخ الاقتصادي لعالم البحر الأبيض المتوسط. صحيح أنه لم تحدث "انطلاقة رأسمالية" capitalist takeoff، كما تسرّع فينلي إلى إثبات ذلك[٢]، لكن النظر إلى الاقتصادات القديمة من هذا المنظور استباق إلى الثورة الصناعية، في حين أن ما يعنيني هنا- عوضا عن ذلك- هو العالم الاقتصادي فيما قبل روما، وإنجازات هذه الحضارات، وكيفية تغلبها على المشكلات، والتأثير الشديد الذي مارسه التلاقح الثقافي cross-cultural exchange على التغير الاقتصادي.

لدي هدفان رئيسان من الكتاب، الأول هو تقصي التطورات والاتجاهات الأخيرة في دراسة اقتصادات البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الأول قبل الحقبة المشتركة، والثاني هو تقديم رواية واسعة ومقدمة لمادة الخبرة البشرية كما عاشها الناس في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك القرون، وإن كانت محاولة التغطية الشاملة حماقة لا جدال. على أنني لا أستطيع أن أتناول كل الموضوعات التي يتقصاها الكتاب بذلك التناول الشامل الذي أتمناه، لذلك ركزتُ على مصر والشرق الأدنى والنصف الشرقي من البحر[٧]. على أن كل فصل في الكتاب يحتاج إلى تقصٍ بطول كتاب مستقل

---

(٦) ثمة تمييز بين الحقبتين الهلنية والهلنستية. تغطي الحقبة الهلنية Hellenic period (من اسم Hellen [هيلين] ابن ديوكاليون Deucalion وبيرا Pyrrha، وهو بحسب الأسطورة الجد الأعلى لليونانيين Hellenes) طوري نشأة الحضارة اليونانية وازدهارها (اليونان العتيقة خلال القرون ٨٠٠-٥٠٠ ق.ح، واليونان الكلاسيكية خلال القرنين الخامس والرابع قبل الحقبة المشتركة)، وتشير بالتالي إلى الحضارة اليونانية الخالصة من التأثيرات الأجنبية. في حين تغطي الحقبة الهلنستية Hellenistic period (من الكلمة الحديثة Hellenist التي تعني الأخذ عن الثقافة الهلنية أو موالاتها) تاريخ البحر الأبيض المتوسط من موت الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.ح حتى ظهور الإمبراطورية الرومانية الذي أعلن عن نفسه بمعركة أكتيوم في عام ٣١ ق.ح، وتشير إلى أوج القوة والتأثير الثقافي اليونانيين في أوروبا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، وإلى امتزاج الحضارة الهلنية مع الحضارات الشرقية. [المترجم]

(٧) على خلاف التعريف الواسع للشرق الأدنى القديم في علم الآثار والتاريخ القديم الذي يشمل الحضارات القديمة في المنطقة التي تسمى حاليا الشرق الأوسط، وهي بلاد ما بين النهرين ومصر والمشرق وآسيا الصغرى وإيران وشبه الجزيرة العربية وجزر شرق المتوسط، يستخدم الكتاب الحالي المصطلح للإشارة بالدرجة الأولى إلى بلاد ما بين النهرين القديمة التي شملت العراق الحالي وشمال غرب إيران وشمال شرق سورية والكويت، ويوسع أحيانا ليشمل مصر والمشرق. [المترجم]

يجريه فريق من المتخصصين، لكن ما أريد أن أفعله- عوضا عن ذلك- هو أن أنقل إلى القارئ متعة دراسة الاقتصادات ما قبل الحديثة في الوقت الحاضر، فضلا عما أرى أنه بعض الأفكار المهمة التي ينبغي تقصيها خلال السنوات القادمة.

توجد في صميم هذا الكتاب محاولة لفهم التطور الاقتصادي economic development خلال الألف الأول قبل الحقبة المشتركة، وهي فترة تميزت بتغير سياسي واقتصادي واجتماعي كاسح في الكثير من أنحاء العالم[٧]. على أنني أفترق عن معظم الأعمال السابقة حول الاقتصادات ما قبل الحديثة في فهم حضارات البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحديدي على أنها كيانات ثقافية مترابطة ضمن مناطق بيئية وجغرافية معينة، وأنها ليست منفصلة بحال من الأحوال. توجد حاليا أدبيات وفيرة في علم الاقتصاد تبيّن أهمية المؤسسات ودورها، وما يضيفه التاريخ ما قبل الحديث إلى ذلك هو إبراز كيف كانت المؤسسات مشروطة تاريخيا ومحتومة ثقافيا. فلا شك أن التغير المناخي والتكيف البشري معه والهجرة والسكان وأنماط التلاقح الثقافي كانت عوامل بالغة الأهمية في تغيير المجتمعات والتوازنات السياسية. وإذا كانت الحدود الثقافية والزمنية بين حضارات الشرق الأدنى القديم والعالم الكلاسيكي تُرسم أحيانا بصرامة تنطوي على شيء من المبالغة، فإن هذا الفصل المصطنع بين العالم "الكلاسيكي" وعالم "الشرق الأدنى القديم" وعالم "مصر" يحجب التلاقح الثقافي ضمن ما كان منطقة كبيرة شملت غرب آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط، أي "المركز الغربي"[٣].

على أن دمج الحضارة "القديمة" و"الحضارة الكلاسيكية" في حد ذاته يغفل الكثير من التطور والتفاعل والتغير الأطول أمدا. فلا ريب أن التأثيرات الفارقة للتغير المناخي والتدرجات القوية في المطر والري بين أقاليم البحر الأبيض المتوسط الرئيسة والوديان النهرية للنيل ودجلة والفرات قد لعبت أدوارا مهمة في مسارات التطور. على أن منظور العصر الحديدي الأوسع يعدل فهمنا للتغير

كما يأتي لاحقا في هذا الكتاب، ينقسم البحر الأبيض المتوسط إلى "حوضين فرعيين" على جانبي مضيق صقلية، مساحة الشرقي منهما ضعف مساحة الغربي. [المترجم]

(٨) لم تكن "التنمية الاقتصادية" بهذا المعنى المقصود واردة في سياق الدول والمجتمعات ما قبل الحديثة، لذلك يترجم مصطلح economic development إلى "التطور الاقتصادي"، وأيضا لتمييزه عن مصطلح "النمو الاقتصادي" economic growth. [المترجم]

المؤسسي، ويحسّن فهمنا لإنجازات العالم "اليوناني-الروماني"، إذ وصلت روما للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط بعمليات مماثلة، أدت إلى الافتراق الأوروبي اللاحق بسبب تطور أوروبا الأسرع في المنافسة التكيفية وفي التقنية العسكرية، وهو شيء أثبته هيرودوت عن اليونانيين[٤]. غير أننا ينبغي أن ننظر إلى هذه المزايا التنافسية من منظور "علم اقتصاد العصر الحديدي" الأطول أمدا. ويمكن تفسير "الافتراق الصغير" خلال الألف الأول قبل الحقبة المشتركة عن طريق مزيج من الابتكار العسكري والجبائي من جانب اليونانيين أولا، ثم الرومان لاحقا[٩]. لكن ثمة عوامل مهمة أخرى لعبت دورا، كان من بينها هِبات الموارد الطبيعية (مثل الفضة كما أثبت زينوفون Xenophon وهو يكتب إبان القرن الرابع قبل الحقبة المشتركة معتبرا إياها "هِبة من العناية الإلهية" لليونانيين)[١٠]، والاختلافات البيئية (الري في مقابل الزراعة الجافة[١١])[٥].

(٩) الافتراق divergence أو الافتراق الكبير great divergence فكرة روّجها المؤرخ كينيث بوميرانز Kenneth Pomeranz في كتاب له بهذا العنوان الأخير، وقدمها أيضا إريك جونز Eric Jones باسم المعجزة الأوروبية European miracle، تشير إلى العملية التي تمكن من خلالها الغرب، تحديدا غرب أوروبا ونسله في العالم الجديد، من التغلب على قيود النمو التي كبلت العالم ما قبل الحديث، والانبثاق خلال القرن التاسع عشر باعتباره- أي الغرب- الحضارة العالمية الأكثر قوة وثراء، متجاوزا هند العصور الوسطى والصين الاتشينغية والعالم الإسلامي وكوريا الجوسونية واليابان التكوغاوية. وفي الكتاب الحالي، يضيف المؤلف أن افتراقا صغيرا minidivergence قد حدث خلال الألف الأول قبل الحقبة المشتركة، كان مقدمة للافتراق الكبير وممهدا له. [المترجم]

يشير النظام الجبائي fiscal regime/system إلى تحصيل الدولة الضرائب والعائدات وانتزاع الجباية لخزينة الدولة وللأشغال العامة، مع الأخذ في الحسبان أن الجباية لم تكن تُحَصَّل نقدا في حقب التاريخ المبكر، بل في شكل سلع وعمل، وعليه تُعرَّب الصفة fiscal على امتداد النص إلى "جبائي". [المترجم]

(١٠) ترتيب القرون واحد قبل الحقبة المشتركة وخلالها، وذلك لأن بداية الترتيبين واحدة، وهي ميلاد المسيح. لكن الفترة التي يغطيها القرن الواحد تسير في اتجاهين متضادين قبل الحقبة المشتركة وخلالها، لأنها تسير في الحالتين من الأقدم زمنيا إلى الأحدث، ومثال ذلك أن القرن الثاني عشر قبل الحقبة المشتركة يشير إلى الفترة ١١٩٩-١١٠٠، ويشير نفس القرن خلال الحقبة المشتركة إلى الفترة ١١٠٠-١١٩٩. بسبب هذا الترتيب العكسي، يكون ترتيب عقود القرن الواحد عكسيا قبل الحقبة المشتركة كما يأتي في حاشية لاحقة. [المترجم]

(١١) الزراعة الجافة dry farming هي الزراعة التي تعتمد اعتمادا كليا على مخزون التربة من الأمطار من الفصل المطير السابق، وبالتالي لا تقوم على المطر مباشرة ولا على الري. [المترجم]

تنطوي المزايا التنافسية على آليات ثنائية الاتجاه للتغذية الراجعة، لذلك أذهبُ على امتداد الكتاب إلى أننا يجب أن نفهم المجتمعات ما قبل الحديثة على أنها أنظمة تكيفية معقدة تميّزت بتغذية راجعة إيجابية وسلبية، وإن كان الوقوف على التطور المتلازم coevolution "للعمليات الطبيعية والبشرية عن طريق العديد من حلقات التغذية الراجعة الإيجابية والسلبية" لا يزال غائبا تماما حتى الآن عن دراسة الاقتصادات ما قبل الحديثة[٦]. فيمكننا- على سبيل المثال- أن نرى عمل آليات التغذية الراجعة في تطور المؤسسات الديمقراطية، وفي إقامة إمبراطوريات ضخمة، وفي الاستجابات المجتمعية للتغيرات المناخية[٧]. فلم تكن السياسة وحدها هي القوة الدافعة وراء فترات التوسع الاقتصادي، بل مزيج من العوامل، شملت الظروف المناخية المواتية، والنمو السكاني، والمؤسسات التي كان من بينها مؤسسات قانونية وفرت الحماية لحقوق المِلكية. فأنا أحاول- قبل كل شيء- أن أقدم إطارا تكيفيا تطوريا لفهم اقتصادات الألف الأول قبل الحقبة المشتركة، وهي فترة تميزت بتنامي الدمج السياسي ودمج الأسواق، وانتشار الكثير من الأفكار الاقتصادية المهمة (العملة ومجموعات القوانين) في كل حدب وصوب[٨]. فمع أن القوة العسكرية وبناء الإمبراطورية كانت عوامل حاسمة في التغير السياسي، فإن هناك أشياء كثيرة أخرى يجب أخذها بنظر الاعتبار لفهم الأداء الاقتصادي. لذلك أسعى في الوقت عينه إلى إبراز كل من الظروف المكبِّلة والتمكينية في الاقتصادات ما قبل الحديثة التي فرضتها المؤسسات والبيئات وتفسر الاختلافات في الأداء.

لقد أصبحت دراسة الاقتصادات ما قبل الحديثة خلال الأربعين سنة الأخيرة مجالا واسعا ومثيرا، كما تبرهن على ذلك قائمة المراجع التي رجعتُ إليها والتي تركز على الأعمال المنشورة باللغة الإنجليزية فقط، وليست شاملة بحال من الأحوال[٩]. غير أن النقاش في هذا المجال هيمنت عليه دراسات الاقتصادات الإمبراطورية الرومانية واليونانية، حتى صارت عبارة "البحر الأبيض المتوسط القديم" تشير حصرا إلى الاقتصاد "الروماني"، وحتى صار "الاقتصاد القديم" غالبا صفرا لا أكثر بالنسبة للاقتصاد الأوروبي المبكر[١٠]. لكن خلال السنوات الأخيرة، اكتسبت دراسات الاقتصاد المصري القديم واقتصادات الشرق الأدنى القديم زخما، وتنتج حاليا فهما مختلفا للعلاقة بين اقتصادات الشرق الأدنى ومصر والاقتصادات الكلاسيكية. وأصبح بمقدورنا حاليا أن نرى بوضوح تام أن التلاقح الثقافي كان جزءا حيويا من اقتصادات البحر الأبيض المتوسط على امتداد الألف الأول قبل

الحقبة المشتركة. لقد اكتسب التاريخ العالمي رواجا، وغدت المقارنات مع التاريخ الصيني المبكر شائعة، وكذلك دراسة تجارة المسافات الطويلة، لا سيما جذور تجارة طرق الحرير[١١]. كذلك أصبح من الممكن أن تزودنا الأعمال التي أجريت حول مجتمعات العالم الجديد بمنظورات جديدة تماما حول اقتصادات البحر الأبيض المتوسط. فلا ينبغي علينا- على سبيل المثال- أن نحصر أنفسنا في دراسة أسواق تحديد الأسعار price-setting markets، وذلك لأن الاقتصادات الأزتكية "بدون العمل المأجور والمِلكية الخاصة والعملات الرسمية ومؤسسات الائتمان والإقراض وأشكال النقل الكفوءة، كانت أحد أكثر نظم الأسواق تطوراً في العالم القديم"[١٢][١٢].

يقودني ذلك إلى القول بأن البحر الأبيض المتوسط المفتوح والتفاعلي الذي جمعت بين جماعاته البشرية ارتباطاتٌ من نقطة إلى أخرى ضمن ذلك البحر، وكذلك ارتباطات بين البحر ومنطقة واسعة من أوراسيا[١٣]، يعد أفضل إطار للألف الأول قبل الحقبة المشتركة، ولعل ذلك هو ما جعل أوراسيا "أنشط" منطقة في التاريخ العالمي[١٣]. على أن كلمة "مفتوح" لا تعني بالضرورة "مترابطا"، ولا تعني بالضرورة "مجزأ"، وهما موضوعان أساسيان في الأعمال الأخيرة حول البحر الأبيض المتوسط ما قبل الحديث، كما يأتي في الفصل الثالث من الكتاب، لكنها تستخدم بمعنى العالم "المشترك" المشروط تاريخيا، على نحو ما وصف مولي غرين Molly Greene البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحديث المبكر[١٤][١٤]. فهناك قوى دافعة عدة دفعت التبادل الثقافي والاقتصادي، وينبغي علينا خلال الألف

(١٢) الأزتك Aztecs ثقافة ازدهرت في أمريكا الوسطى، تحديدا في المكسيك الأوسط، ما بين عامي ١٣٠٠ و١٥٢١ ح.م، اتخذت شكل الدول المدينية التي دخل بعضها في تحالفات أو اتحادات أو إمبراطوريات، كانت لهم مدنا كبيرة ومؤسسات اجتماعية وسياسية ودينية، انتهت دولتهم بسقوط عاصمتهم تينوشتيتلان Tenochtitlan أمام الغزاة الإسبان بقيادة إرنان كورتيس Hernando Cortés في عام ١٥٢١. [المترجم]

(١٣) أوراسيا Eurasia كلمة منحوتة من كلمتي أوروبا وآسيا، وتشير بذلك إلى كتلة اليابسة الممتدة للقارتين في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والشرقي، من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهادي شرقا، ويحدها شمالا القطب الشمالي وجنوبا البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي. [المترجم]

(١٤) وفقاً للتحقيب الغربي، يبدأ العصر الحديث من نحو القرن السادس عشر، ويقسم إلى العصر الحديث المبكر (من معالمه عصر النهضة وعصر الاستكشاف) والعصر الحديث المتأخر الذي يبدأ من نحو منتصف القرن الثامن عشر (من معالمه الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والافتراق الكبير). وقبل العصر الحديث، غطت العصور الوسطى القرون من الخامس إلى الخامس عشر وبدأت بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وانتهت بسقوط الإمبراطورية البيزنطية،

الأول قبل الحقبة المشتركة أن نعامل شمال البحر الأبيض المتوسط على أنه مرتبط سياسيا واقتصاديا بغرب آسيا وشمال أفريقيا ومصر.

ثمة معنى آخر لكلمة "مفتوح" أنوي أن أتعقبه في هذا الكتاب، وهي المقاربة التي ينبغي أن تتبناها البحوث المستقبلية حول الاقتصادات ما قبل الحديثة، بأن تكون أكثر انفتاحا ونفاذية على الكثير من المسارات الأكاديمية المختلفة. لا يقتصر ذلك وحسب على التخصصات الإنسانية ممثَّلة في اللغات القديمة بالدرجة الأولى، بل يشمل مجموعة كاملة من العلوم الاجتماعية والعلوم الفيزيائية والبيولوجية. فلا بد أن يكون المبدأ الموجه لنا هو دعوة كارل بوتزر Karl Butzer إلى العمل العابر للتخصصات بين دارسي العلوم الإنسانية وعلماء الاجتماع والطبيعة والفيزياء والبيولوجيا، لذلك أضم صوتي إلى صوت روبرت مكورميك أدامز Robert McCormick Adams في دعوته إلى "إسقاط الحدود"[١٥]. على أنني لا أعني بالعمل "العابر للتخصصات" أن يجري متخصصو الدراسات الكلاسيكية ودارسو الشرق الأدنى مناقشات لطيفة وهم يشربون القهوة (وإن كان ذلك مسارا لا غبار عليه)[١٥]، بل أعني بالأحرى أننا يجب أن نفكر في البحوث بالطريقة التي ينظر بها علماء البيولوجيا إلى مفهوم "التقارب" convergence[١٦]، إذ ينبغي أن يعير المؤرخون المزيد من الانتباه إلى علم الآثار، وأن تُشكّل فرق من المتخصصين للتعامل مع مشكلات بعينها. فلم تعد دراسة المجتمعات القديمة تتطلب المهارات الفيلولوجية ومهارات القراءة المدقّقة وحسب[١٦]، بل صارت في حاجة كذلك إلى القراءة الواسعة في المجالات الأثرية والعلمية. فقد أصبح مؤرخو ما قبل العصر الحديث مطالبين

وتقسم إلى العصور الوسطى المبكرة التي تسمى عصر الظلام (القرون من الخامس إلى العاشر) والعصور الوسطى الوسيطة (القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر) والعصور الوسطى المتأخرة (القرنان الرابع عشر والخامس عشر). وقبل العصور الوسطى، يمتد العصر القديم الكلاسيكي (راجع حاشية لاحقة حوله) حتى القرن الثامن قبل الحقبة المشتركة، الذي يشكل جزءا من التاريخ القديم الذي يرجع إلى أواخر الألف الرابع قبل الحقبة المشتركة. [المترجم]

(١٥) تعنى الدراسات الكلاسيكية classics بدراسة العالم القديم الكلاسيكي بمعناه الوارد في حاشية سابقة، وتحديدا اللغة والأدب اليوناني القديم واللاتيني الكلاسيكي، وكذلك الفلسفة والتاريخ وعلم الآثار المرتبط بهاتين الحضارتين. [المترجم]

(١٦) الفيلولوجيا philology دراسة اللغة بوصفها أداة للتعبير في الأدب وحقلا من حقول البحث يلقي ضوءاً على التاريخ الثقافي للشعوب. [المترجم]

حاليا بأن يقرأوا مجلات "نيتشر" و"ساينس" و"سِل"[١٧]، جنبا إلى جنب مع المجلات المعتادة في مجال التاريخ والعلم الاجتماعي. وتعد النظرية التطورية الثقافية وعلم الوراثة وعلم البيولوجيا القديمة وعلم المناخ القديم أربعة ليس إلا من عدد كبير من المجالات العلمية التي ستلعب دورا مهما في فهم التغير التاريخي في العالم ما قبل الحديث[١٧][١٨]. كما أن بناء نماذج أشد تعقيدا للسلوك البشري والتعرف على العلاقات السببية في حلقات التغذية الراجعة، يتطلبان أن يفهم المؤرخون الإسهامات الممكنة للعلوم الاجتماعية والفيزيائية والبيولوجية. ولا ريب أن بعض المؤرخين لن يتقبلوا فكرة أننا يجب أن نكون ملمين بالأعمال في العلوم البيولوجية أو الجيوفيزيائية[١٩]، لكن ذلك ضرورة في اعتقادي، إن أردنا أن نحقق تقدما. يعني ذلك أن بعضا من عملنا على الأقل يجب أن ينظم في شكل فرق مرنة تُعنى بالإجابة عن أسئلة بعينها وحل مشكلات بذاتها، بدل أن يواصل كل منا العمل منفردا في دراساته.

وبالنظر إلى أن "التاريخ محفِّز للخيال الاقتصادي"، فإن الاقتصادات ما قبل الحديثة تقدم معلومات ثرية ومهمة حول تنظيم المجتمعات البشرية في الماضي وتعاملها مع المشكلات، ولعل الأهم من ذلك هو أن دراسة السلوك الاقتصادي ما قبل الحديث تعد مختبرا لفهم التغير المؤسسي[١٨]. لذلك يعد الفهم الواسع والعميق للاقتصادات ما قبل الحديثة جزءا مهما، وإن ظل مهملا حتى الآن، من فهم عالمنا المعاصر. لكن التاريخ ليس خطيا، ولم يكن مسيرة تقدمية مطردة من العصر القديم إلى الثورة الصناعية، وما يمكن أن نفعله بالمادة القديمة هو أن نفهم العمليات التاريخية على المدى الطويل. إن

(١٧) "نيتشر" Nature و"ساينس" Science و"سِل" Cell من أهم المجلات العلمية المحكمة في العلوم. [المترجم]

(١٨) البيولوجيا القديمة أو البيولوجيا الإحاثية paleobiology تخصص علمي جديد يجمع بين مناهج علم البيولوجيا ونتائجه ومناهج علم الإحاثة paleontology (علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة كما تمثلها المتحجرات أو المستحثات الحيوانية والبناتية) ونتائجه، ويستخدم البحوث الميدانية البيولوجية حول أشكال الحياة الحالية والمستحثات القديمة للإجابة عن أسئلة التطور الجزيئي والتاريخ التطوري للحياة. [المترجم]

يُعنى علم المناخ القديم paleocimatology بدراسة التغيرات في المناخ على نطاق تاريخ الأرض كاملا، مستفيدا من العديد من مناهج البحث التمثيلية (راجع حاشية لاحقة حولها) من علوم الأرض والحياة، للحصول على البيانات المحفوظة في أشياء مثل الصخور والرواسب والألواح الجليدية والحلقات الشجرية والشعاب المرجانية والأصداف والأحافير الدقيقة، بغرض الوقوف على حالة المناخ في مختلف مناطق الكرة الأرضية والفترات والحقب التاريخية. [المترجم]

(١٩) الجيوفيزياء أو فيزياء الأرض geophysics فرع من علوم الأرض يدرس العمليات والخصائص الفيزيائية للأرض والبيئة المحيطة بها باستخدام مناهج البحث الكمية. [المترجم]

الكلمات الثلاث جميعها ضمن عبارة the ancient economy [الاقتصاد القديم] إشكالية، فلم يكن هناك شيء من قبيل الاقتصاد القديم مُعَرَّفا بالألف واللام، كما أن كلمة "القديم" مبهمة من حيث الزمان والمكان، وكذلك كلمة "الاقتصاد" محملة بالكثير من الافتراضات الحديثة والنظرية الحديثة التي لا يمكن تطبيقها ببساطة على ظواهر العالم القديم بسبب الشبكات المتداخلة للقوة الاجتماعية التي تجعل من غير الممكن عزل السلوك والمؤسسات الاقتصادية عن السلوك والمؤسسات الدينية والعسكرية والسياسية[١٩]، تماما كما أنه من غير الممكن عزل السلوك الاقتصادي باعتباره دائرة منفصلة من النشاط البشري في العالم المعاصر. وفي هذا الجانب، يمكن للتاريخ القديم أن يرشّد العالم المعاصر.

إنني أدخل إلى هذا الكتاب بافتراضات عدة، منها (١) أن الدراسة الواسعة للأبنية والمؤسسات الاقتصادية القديمة مهمة لمجال التاريخ الاقتصادي الأوسع، (٢) أننا لا يجب أن نشغل أنفسنا بدعوة رانكه Ranke لأن نقول "كيف كان الحال فعلا"، إذ إن مهمتنا الأساسية تتجاوز تفسير التغير على مر الزمن إلى تفسير استمرارية المؤسسات، (٣) أننا يجب أن نتجاوز الجدل الوجودي، ونحتاج في ذلك إلى إطار تطوري لنطاقات زمنية أطول يُفهم خلالها التغير قصير المدى، (٤) أن الطبيعة المتباينة والمجزأة لمصادرنا تتطلب إطارا نظريا واسعا يُفهم خلاله التغير والاستمرارية[٢٠]. إن تفسير التغير هو العمل الذي يبرع فيه المؤرخون، لكنه يمكن أن يتبدد بسبب العبء الذي تفرضه مجموعة الأدلة "الصارمة"، والتخصص في اللغات، والميل إلى السرديات النثرية الفخمة أو التركيز الحصري على مجموعة ضيقة من المواد[٢١]. إن التاريخ مهم، وكذلك التحليل الاقتصادي والثقافة، لذلك لا يجب أن يقصي بعضها بعضا، مع أن التاريخ الثقافي، وهو إطار مهيمن في الدراسات الكلاسيكية، يمكن أن يحجب حقائق موضوعية[٢٢]. وتأسيسا على ذلك فإن الأدلة المستمدة من الكثير من المجالات، منها العلوم الطبيعية والتخصصات الرئيسة ممثَّلة في الفيلولوجيا والبليوغرافيا وعلم الآثار وعلم النُمّيّات[٢٠]، ينبغي أن تُصنف وتُحلل معا.

---

(٢٠) البليوغرافيا paleography علم يدرس نظم الكتابة والنقوش القديمة. [المترجم]

يُعنى علم النُمّيّات numismatics بجمع ودراسة القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية والمسكوكات القديمة عموما. [المترجم]

ثمة خلفية أكاديمية غير معتادة نوعا ما ترشّد مقاربتي العامة للعالم ما قبل الحديث، تتألف من ثلاثة أشياء تركت فيّ أثرا عميقا، أولها صيف أمضيته في كامبسفيل Kampsville في إلينوي Illinois عندما كنتُ في المدرسة الثانوية. كانت هذه البلدة النهرية الصغيرة مركزا لأعمال تنقيب في مناطق واسعة على امتداد وادي نهر إلينوي تحت إشراف مركز الآثار الأمريكية Center for American Archaeology ومدرسته الصيفية بقيادة استيوارت استروفر Stuart Streuver وفريقه من "علماء الآثار الجدد" New Archeologists (كانت تلك هي الطريقة المفضلة لكتابة لكلمة archaeology حينذاك) الذين كانوا يعيدون كتابة التاريخ المبكر للشعوب الأصلية في وديان نهري الميسيسبي وإلينوي[٢٣]. كنتُ في كل يوم يمر أشعر بحماسهم، وما زلت أتذكر عَبّارة المركبات النهرية الصغيرة التي كانت تعبر بنا نهر إلينوي إلى هذه البلدة الصغيرة (بلغ عدد سكانها في عام ٢٠١٠ ثلاثمائة وثمانية وعشرين شخصاً) التي كانت مع ذلك تعج بأعمال التقصي العلمي، وحتى اليوم ما زالت أشعر بالرهبة في كل مرة أعبر فيها الميسيسبي إلى شمال تلك العَبّارة مباشرة، وأنظر إلى ذلك النهر المهيب والمشاهد الضبابية لأرض إلينوي الزراعية الخضراء التي تمتد على مرمى البصر.

عملتُ في موقع استيطان موسمي صغير يرجع إلى حقبة الغابات المبكرة[٢١]، أي نحو عام ٢٠٠ ق.ح (وهو للعجب التاريخ الذي يشكّل بؤرة بحوثي والحد النهائي للكتاب الحالي). وفي أمسية حارة ورطبة، قدم جورج بيدل George Beadle محاضرة لا تنسى حول علم الوراثة لمحصول الذرة الصفراء لقاعة مزدحمة بالحضور في مختبر مسوح مقاومة التربة Soil Resistivity Survey. تعلمتُ الكثير في ذلك الصيف حول ما يقدمه العلم الطبيعي من نواحٍ عدة لإعادة بناء الماضي. وفي ذلك الصيف، أصبحتُ ماديًا، وأعترفُ بأن الأيام لم تنل من هذه القناعة[٢٢]، وأصبحت عالما آثار متخصصا في العالم الجديد، لكنني بعد التخرج قررتُ أن أتابع شغف الطفولة بعلم المصريات. كان إعدادي في الدراسات العليا

(٢١) حقبة الغابات Woodland Period حقبة ضمن تصنيف الثقافات الأثرية في أمريكا الشمالية ما قبل الكولومبية، تمتد من نحو عام ١٠٠٠ ق.ح حتى الاتصال الأوروبي بشرق أمريكا الشمالية في أوائل القرن السادس عشر من الحقبة المشتركة، تشمل مواقع من جماعات الصيد والجمع القديمة والثقافات الزراعية في حوض الميسيسبي. [المترجم]

(٢٢) اتساقا مع الفلسفة المادية materialism التي ترجِع التغير الاقتصادي والاجتماعي إلى العوامل المادية، يؤكد المؤلف الحالي دور البيئة والتغير المناخي واستجابات الإنسان لها باعتبارها من القوى الدافعة الأساسية للأداء الاقتصادي والتغير في اقتصادات البحر الأبيض المتوسط القديم، لا سيما مصر والشرق الأدنى. [المترجم]

في المعهد الشرقي Oriental Institute بجامعة شيكاغو University of Chicago، وكانت درجة عملية صارمة تركز على اللسانيات التاريخية للغة المصرية وقراءة المخطوطات المتصلة المختلفة. كان ذلك الإعداد تقليديا ونظاميا وطويلا للغاية. وفي أسبوعي الأول بكلية الدراسات العليا، قرأتُ كتاب كارل بوتزر "الحضارة الهيدروليكية المبكرة في مصر" Early Hydraulic Civilization in Egypt الذي ترك فيّ انطباعا لا يمحى[٢٣]، وما زلتُ أتذكر تلك الليلة في الطابق الخامس بمكتبة ريغنستاين Regenstein Library التي قرأتُ فيها الكتاب لأول مرة. وعلى النقيض تماما من إعدادي اللغوي، كانت أول حلقة دراسية أحضرها في شيكاغو في الربيع لأرنلدو موميليانو Arnaldo Momigliano (من أواخر محاضراته على ما أعتقد) ولورنس استيجر Lawrence Stager بعنوان "النماذج الاقتصادية والدينية في العالم القديم" Economic and Religious Models of the Ancient World، كانت مليئة بطلاب السنوات النهائية والأساتذة، وكنا- على ما أتذكر- اثنان فقط من طلاب السنة الأولى بالدراسات العليا نأخذ هذا المقرر لإكمال الساعات المعتمدة، ولا نعرف بالضبط ذلك المقرر الذي وقّعنا على اختياره. لم أكن أعرف ما هو "النموذج" model، ولا كيف يمكنني أن أكتب ورقة متماسكة، ولا كيف انتقل من المصادر النصية إلى النموذج؟ أم كان المفترض أن أسير في الاتجاه المعاكس؟ كانت غرفة الحلقة الدراسية المزدحمة تضج بالنقاش كل أسبوع وتلتهب بالأفكار والمنظورات المختلفة، والقليل من الخلافات المريرة. وتماما كما فعل كتاب بوتزر، ترك فيّ هذا المقرر أثرا هائلا لم أدركه إلا متأخرا جدا[٢٤].

شيئا فشيئا، نما لديّ افتتان بالمراحل الأخيرة من تاريخ مصر القديمة، لا سيما البرديات الوثائقية المكتوبة بالخط المصري الديموطيقي demotic script. رأيتُ أن ذلك المجال ينطوي على مستقبل مبشر، وأن هذه البرديات تحتوي بيانات ساحرة حول الأفراد والأسر، لا يوجد لها نظير في

(٢٣) الحضارة الهيدروليكية أو المائية Hydraulic Civilization هي الحضارة أو المجتمع القائم على بنية اجتماعية أو سياسية (دولة) تحوز السلطة بفضل سيطرتها الحصرية على الوصول إلى الماء، الناشئة عن السيطرة على الفيضان والري اللذين يتطلبان تنسيقا مركزيا وبيروقراطية متخصصة، من أمثلتها التاريخية حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين والسند والصين. يستخدم هذا المصطلح، ومعه الإمبراطورية الهيدروليكية hydraulic empire، مرادفا لمصطلح الاستبداد الشرقي oriental despotism الذي سكه المؤرخ كارل فيتفوغل في كتابه "الاستبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة الشمولية" Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power. [المترجم]

العالم القديم. وبعد الامتحانات الكثيرة المؤهلة للدكتوراه في سنتي الرابعة التي اجتزتها بصعوبة بالغة، رتب لي الدارس الفذ للغة المصرية الديموطيقية والزميل في كلية سيلوين Selwyn College جون راي John Ray فرصة لم أكن لأفوّتها للانتقال إلى جامعة كامبردج Cambridge University التي وصلتها بعد أسبوعين من وفاة موزيس فينلي، وهناك أتاح لي الحظ السعيد أن أجلس في حلقات دراسية في الاقتصاد القديم لكيث هوبكنز Keith Hopkins وبيتر غارنسي Peter Garnsey، وفي القانون اليوناني لبول كارتليدج Paul Cartledge. عملتُ مع جون راي على نصوص ديموطيقية، ومع دورثي تومسن Dorothy Thompson التي قرأتُ معها النصف الأول من مجموعة ضخمة من الوثائق اليونانية البطلمية التي تشكل المجلد الأول من الكتاب الرائع "وثائق الحقبة البطلمية" Urkunden der Ptolemäerzeit، في وقت كانت دورثي تعمل فيه على الكتاب الذي نُشر بعنوان "منف في عهد البطالمة" Memphis under the Ptolemies الذي نفذت طبعته الثانية حاليا[٢٤]، وما زلتُ أحتفظُ بالملحوظات التي دونتُها. كما حضرتُ مقرراً رائعاً حول النسخة اليونانية من كتاب "رسالة إلى الغلاطيين" في مدرسة ديفينتي Divinity School[٢٥]. وقد كان من حسن حظي أني التقيتُ مجموعة متحمسة من طلاب الدراسات العليا المتقدمين والمبتدئين، وسرعان ما أدركتُ، وأنا أجلس في مقهى الكلية بعد حلقة دراسية مثيرة، أنني من خلال التحدث معهم بانتظام كنتُ في قلب عمل طليعي في التاريخ القديم. كانت محادثاتنا رفيعة الثقافة ومقارِنة وواسعة، واكتشفتُ أن مصر الألف الأول قبل الحقبة المشتركة يمكن أن توضع في سياق مماثل. لقد فُتحت عيناي في تلك السنة على عالم جديد من الفرص والإمكانات.

كنتُ كلما قرأتُ المزيد، أذهلتني حقيقة أن مصر كانت ولا تزال مستبعدة من النقاشات العامة حول الاقتصادات القديمة. وتساءلتُ كيف يمكن إغفال حضارة ظلت لغتها قيد الاستخدام على

---

(٢٤) ينسب البطالمة Ptolemies إلى بطليموس الأول المنقذ Ptolemy I Soter (٣٦٧-٢٨٣ ق.ح)، وهي السلالة التي استقلت بحكم مصر بعد غزو الإسكندر الأكبر، بداية من عام ٣٠٥ ق.ح حتى معركة أكتيوم البحرية ووفاة كليوباترا في عام ٣١ ق.ح. [المترجم]

(٢٥) "رسالة إلى الغلاطيين" book of Galatians إحدى رسائل العهد الجديد، تنسب إلى الرسول بولس، وموجهة إلى كنائس إمارة غلاطية Galatia الرومانية التي كانت تقع على جزء من دولة تركيا الحالية، كتبها بولس لإثبات رسوليته التي شكك فيها المسيحيون من أصل يهودي، ولإثنائهم عن اتباع شريعة موسى، وإثناء المسيحيين من أصول وثنية عن اتباع اليهود السابقين في أمور مثل الختان. [المترجم]

مدار ثلثي التاريخ البشري المدوّن وتركت ذلك الأثر الكبير على شرق البحر الأبيض المتوسط؟ كيف يمكنني أن أضع المادة المصرية المتأخرة المثيرة في حوار مع المناطق الأخرى؟ تضع التخصصات اللغوية الحدود بين التخصصات الأكاديمية في العلوم الإنسانية، بمعنى أنها تضع المتخصصين ضمن الدراسات الكلاسيكية أو علم المصريات أو علم الآشوريات أو الصين المبكرة وما إليها، وكل منها مخصص لدراسة مجموعة واحدة من اللغات والمخطوطات. يضمن ذلك أن تأتي معالجة الظواهر الاقتصادية من وجهات نظر ناشئة من المادة النصية والأثرية ومن مكان وزمان محددين، لكنه ينتج أنواعا ضيقة ومبتورة من التواريخ، ويمكن أن يغفل القوى الدافعة الأكبر للتلاقح الثقافي، وتأثير التغير المناخي عبر الفضاء الجغرافي الأكبر، وانتشار التغير التقني، وما إليها.

أتيحت لي في جامعة استانفورد Stanford ميزة الزملاء الأجلاء الذين تعلمتُ الكثير من كل واحد منهم، وهناك حضرتُ على مدار العقد الأول من القرن الحادي والعشرين سلسلة محفِّزة من ورش العمل والحلقات الدراسية والمؤتمرات برعاية منفردة من مبادرة معهد تاريخ العلم الاجتماعي Social Science History Institute بقيادة استيف هابر Steve Haber أو بشراكة من المبادرة مع مؤسسات أخرى. وحضرتُ ورش عمل وحلقات دراسية لا تحصى في علم الاقتصاد، وكان من حسن حظي أني حضرتُ مقررا عاما في علم الاجتماع الاقتصادي كان مارك غرانوفيتر Mark Granovetter يدرّسه، ومقرر تاريخ القانون الأمريكي الذي كان يدرّسه عميد ذلك المجال لورنس فريدمان Lawrence Friedman في كلية استانفورد للحقوق Stanford Law School. وتعرفتُ عن قرب على دوغلاس نورث Douglass North وآفنر غريف Avner Greif وبيري واينغست Barry Weingast وغافن رايت Gavin Wright. كما أسهم زملائي السابقون في التاريخ القديم إيان موريس Ian Morris وجوزايا أوبر Josiah Ober وولتر شايدل Walter Scheidel في تشكيل أعمالي. وما زلتُ أكنُ امتنانا خاصا لموريس الذي شاركتُ تحت إشرافه في تأليف مقرر عام حول علم الاجتماع الاقتصادي لعالم البحر الأبيض المتوسط القديم، كان الأصل لبعض أفكاري الكبيرة حول التاريخ القديم[٢٥]. واستضفتُ مع إيان لقاء دعونا إليه متخصصين في المجتمعات القديمة المختلفة وعلماء اجتماع واقتصاد ومؤرخين اقتصاديين وعلماء سياسة وعلم اجتماع اقتصادي لمناقشة أوراق متخصصة، وأنتجنا في عام ٢٠٠٥ كتابا صغيرا للإشادة باثنين من كتب موزيس فينلي، حاولتُ فيه أنا وموريس أن نضع جدول

أعمال، شمل دمج مصر والشرق الأدنى القديمين ضمن سياق المعالجة الأوسع "للاقتصاد القديم"، أو مناقشتهما ضمنه على أقل تقدير. وأظن أننا كنا واقعين تحت تأثير اجتماع "المدينة المنيعة" الشهير الذي عُقد في شيكاغو في عام ١٩٥٨ بحضور كوكبة شديدة التنوع من الدارسين جلسوا حول طاولة واحدة[٢٦][٢٦]. كذلك تتردد أصداء كتاب موريس الملهم "لماذا يسيطر الغرب حاليا" (Why the West Rules—for Now, 2010) على امتداد كتابنا هذا.

انتقلتُ إلى جامعة يل Yale في عام ٢٠٠٨، وهناك أيضا تعرفتُ على زملاء من ذهب، أحاطوني برعايتهم. وهنا تمثلت قاعدتي الأساسية، إذا جاز التعبير، في مجموعة التاريخ الاقتصادي النشطة خوسيه إسبين سانشيس José Espin-Sanchez وتِم غينين Tim Guinnane وناعومي لامورو Naomi Lamoreaux ونويل لينسكي Noel Lenski وفرانشيسكا تريفيلاتو Francesca Trivellato، ومجموعة التاريخ القديم نويل لينسكي وأندرو جونستون Andrew Johnston وجيسيكا لامون Jessica Lamont، وهم جميعا زملاء رائعون، كان كل منهم في مواضع مختلفة سخيا في مقترحاته أو قراءة عملي ونقد ما ذكرته أو ما لم أذكره فيه. ولا يفوتني أن أشكر صديقي وزميلي هارفي وايس Harvey Weiss الذي علمني الكثير حول علم المناخ القديم، وراي برادلي Ray Bradley من جامعة ماساتشوستس في أمهيرست U Mass–Amherst الذي قدم لي مساعدة سخية في هذا الجانب. تتضمن لائحة الشكر أصدقاء وزملاء آخرين قدموا المادة أو النقد لمسودات الكتاب. وكذلك تعلمتُ الكثير من صديقي بيتر تيرتشن Peter Turchin من جامعة كنيتيكت University of Connecticut على عشائنا

(٢٦) ربما سُمي الاجتماع "المدينة المنيعة" City Invincible، وكذلك الكتاب الذي انبثق عنه، على عبارة للشاعر ولت وايتمان Walt Whiteman من قصيدة له بعنوان "رأيت في حلمي" I Dreamed In A Dream جاء فيها: I dreamed in a dream, I saw a city invincible to the attacks of the whole of the rest of the earth; I dream'd that was the new City of Friends ["رأيت في حلمي مدينة منيعة أمام هجمات بقية الأرض قاطبة، حلمت أنها كانت مدينة الأصدقاء الجديدة]، وهي العبارة التي كانت العنوان الرئيس للكتاب، فيما كان هذان البيتان من القصيدة العنوان الفرعي، والإشارة إلى مدينة الأصدقاء تعني اجتماع المتخصصين على اختلاف مشاربهم لمناقشة قضايا التاريخ القديم، ما يعطي استنتاجاتهم مناعة ضد الزلل. [المترجم]

الشهري معاً، وتعلمتُ من عملي ضمن فريق مشروع سشات للتاريخ العالمي Seshat global history project الذين كانوا أسخياء في تعليقاتهم[٢٧].

كان اعتقادي قبل بضع سنوات هو أن دراسة الاقتصادات القديمة بلغت ذروةً أخذت البحوث والكتابة بعدها تتباطأ، وأنه لم يعد هناك الكثير مما يثير الاهتمام، هكذا كان اعتقادي. ثم قمتُ بتدريس مقرر عام لطلاب ما قبل التخرج في جامعة يل، وجاء جمع بعض الأعمال الأخيرة حول بضعة موضوعات ليغير رأيي تماما. فما يزال المجال يشهد الكثير من الأحداث، وما زالت الأحداث تتلاحق سريعا، وتتطور بالتلازم مع تخصصات أخرى على نحو بالغ الإثارة، وتتضخم الأدبيات بمادة جديدة وأفكار جديدة ومقاربات جديدة، وسرعان ما أدركتُ أنني يمكن أن أكتب كتابا يوجز كتابات "الاقتصاد القديم" التي ظهرت خلال العقد الأخير أو نحوه، وليس الأربعة عقود الأخيرة بأي حال من الأحوال.

بيد أنني أريد بدلا من ذلك أن أعطي القارئ إحساسا بما يحدث وأين تتجه الأعمال المستقبلية، وأرى في ذلك أن هناك مجالين محددين سيشكلان الأعمال المستقبلية على نحو مؤثر، الأول هو الأعمال التفصيلية لتفسير التغير بالنماذج الحركية dynamic models، وأعتقد أن النظريات التطورية مبشرة في هذا المجال. أما المجال الثاني الذي يعبر عن اهتمامي في الوقت الحاضر، فهو بلوغ فهم أفضل لتسبب المناخ والتغير المناخي في استجابات مجتمعية في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط ما قبل الحديثة وتكبيل هذه المجتمعات.

بإعادة صياغة كلام مؤرخ التخوم الأمريكية الكبير فريدريك جاكسون تيرنر Frederick Jackson Turner، أقول إن كل جيل من المؤرخين يكتب تاريخه، وأزيد على ذلك أنه يوجد بيننا حاليا، كما لم يحدث من قبل، تشكيلة هائلة من أنواع الكتابة التاريخية، تتراوح من التاريخ الجزئي microhistory إلى التاريخ العالمي global history الذي يمثل الموضة حاليا[٢٨]. ولا يختلف الحال في النظرية الاقتصادية عن ذلك، إذ من الواضح أن كل جيل- أو كل أزمة اقتصادية على الأقل- من آدم سميث Adam Smith حتى اللحظة الراهنة، يضع نظرياته وتفسيراته. ويشهد الوقت الحالي رواجا

(٢٧) سُمي هذا البرنامج على اسم إلهة الحكمة والمعرفة والكتابة وحارسة النصوص والسجلات في مصر القديمة سشات التي يعني اسمها "التي تدوّن". [المترجم]

للتواريخ "الضخمة" mega histories أو التواريخ "العميقة" deep histories التي تبحث عن منظورات تطورية حول التاريخ البشري وحول المؤسسات البشرية، من منظور التاريخ الأطول أمدا والتاريخ العالمي، وحتى تاريخ الكون كاملا[٢٨][٢٩]. كما تنتشر مقاربات التاريخ الجزئي التي لا تُقدَم غالبا بهذا الاسم ولا تشير إلا إشارة عابرة إلى الأدبيات الضخمة أو النقاشات الكثيرة في المجال[٣٠]. تعد هذه المقاربات ناتجا عرضيا طبيعيا لأنواع الأدلة الأرشيفية التي وصلت إلينا من العالم القديم[٣١]، لكن لا سبيل أمامنا لمعرفة ما إذا كانت دراسة الحالة هذه أو تلك تمثل عالمها فعلا أم لا.

إننا نعيش في عالم مشوَّش ومعقد، لكن العالم ما قبل الحديث أو ما قبل الصناعي كان معقدا هو الآخر، بل كان في بعض النواحي أشد تعقيدا من العالم الحديث، ولا ريب أنه لم يكن أقل تشوَّشا[٣٢]. ومع ذلك فإن عدد البشر على الكوكب كان أقل كثيرا، وكان عالمهم أكثر هشاشة. وبالنظر إلى ذلك، فإن إمكانية ترسيخ توازنات سياسية عبر إقليم شاسع ومعقد على مدار قرون كاملة في المرة الواحدة تعد من الأمور اللافتة للانتباه. ينحو العلماء الاجتماعيون إلى بناء نماذج للعالم يختبرون بها البيانات، وهذه النماذج تتحسن باطراد، في حين ينحو المؤرخون أصحاب توجه العلوم الإنسانية إلى الاحتفاء بتعقيد المجتمع والمصادر التي يدرسونها، ولا يلتقي الاثنان إلا نادرا[٣٣].

يقوم الكتاب الحالي على مسلمة مؤداها أن فهم التطورات التاريخية والثقافية لأوائل الألف الأول قبل الحقبة المشتركة وأخذها بنظر الاعتبار يعد في الأساس جزءا مهما من فهم الاندماج الاقتصادي المتزايد لعالم البحر الأبيض المتوسط على اتساعه خلال الحقبتين الهلنستية والرومانية (أي بعد عام ٣٠٠ ق.ح على وجه التقريب)[٣٤]. معنى ذلك أن التلاقح الثقافي، وخبرة تكوين

(٢٨) يسمى هذا النوع من الكتابة التاريخية أيضا التاريخ الكبير Big History وهو فرع معرفي ناشئ يتقصى التاريخ من الانفجار العظيم حتى الحاضر عبر أطر زمنية طويلة وباستخدام مقاربة متعددة الفروع المعرفية من خلال الجمع بين الكثير من الفروع المعرفية من العلوم الطبيعية والإنسانية، ويتقصى الوجود الإنساني في سياق هذه الصورة الأوسع. [المترجم]

(٢٩) فيما قبل الحقبة المشتركة تشير كلمتا "أوائل" و"أواخر" (و"مطلع" و"نهاية"، و"أول" و"آخر") إلى عكس دلالتيهما خلال الحقبة المشتركة. فقبل الحقبة المشتركة، تشير عبارة "أوائل الألف الثالث"- مثلا- إلى الفترة ٢٩٩٩- ٢٦٥٠ ق.ح، وتشير عبارة "أواخر الألف الثالث" إلى الفترة ٢٣٥٠-٢٠٠٠ ق.ح. وبعد الحقبة المشتركة، تشير عبارة "أوائل الألف الثاني"- مثلا- إلى الفترة ١٠٠٠-١٣٥٠، وتشير عبارة "أواخر الألف الثاني" إلى الفترة ١٦٥٠- ٢٠٠٠. وعموما يشير منتصف أي ألف للفترة ٣٥٠-٦٥٠. [المترجم]

الإمبراطوريات، والاستجابات المؤسسية المتباينة التي تتكشَّف في التقاليد القانونية المحلية، واستخدام النقد والعملة وأدوات الائتمان والبنوك، أسهمت جميعها في دفع التطور الاقتصادي الطويل لحضارات البحر الأبيض المتوسط[٣٠]. على أن هذه الاستمرارية للمؤسسات يجب أن تُفهم بالطبع جنبا إلى جنب مع السمات الثقافية الجديدة التي أحدثتها حركة الناس والهجرة والحرب والتغير المناخي والفرص الجديدة. فلم يعد من المقبول أن نواصل الجدل حول ما إذا كانت الاقتصادات القديمة "بدائية" أم "حديثة"، أو أن نحصر أنفسنا في الاعتبارات الضيقة للاقتصادات الكلاسيكية كما حددها سلوك جماعة النخبة على مدى ألف وخمسمائة سنة، وهي مقاربة تعزز فكرة أن المجتمعات ما قبل الحديثة كانت ساكنة. وإذا كانت النطاقات الزمنية الطويلة تشكل جانبا مهما لدراسة التغير، فإن الروايات الأوسع لأنماط التلاقح الثقافي في كل من السلع والأفكار لا تقل عن ذلك أهمية. ولعل الأهم من ذلك- في اعتقادي- هو التعرف على طريقة تفاعل المجتمعات ما قبل الحديثة مع العالم الطبيعي، وهو ما يتطلب مقاربة نظام الحث التبادلي الطبيعي-البشري[٣١]، التي أتناولها في الفصل الخامس من الكتاب.

أقسمُ الكتاب إلى بابين، أبدأ الباب الأول المعنون "التاريخ والنظرية" بمقدمة ترجع إلى جذور الجدل حول طبيعة "الاقتصاد القديم"، تماما كما تطور على نحو متلازم مع مجال علم الاقتصاد. وهنا يلوح كتاب موزيس فينلي "الاقتصاد القديم" جليا، لكنه يتموضع في نهاية جدل طويل عقيم، في حين يتقدم معظم العمل الحالي ضمن أطر مختلفة تماما. ثم أبرزُ في الفصل الأول بعض الموضوعات المهمة والاتجاهات الجديدة التي تتبناها دراسات الاقتصادات ما قبل الحديثة حاليا، ويقدم الفصل الثاني بعنوان "الاقتصادات القديمة: مراجعة من التجار الفينيقيين حتى ظهور الإمبراطورية الرومانية"

(٣٠) مع أن البنك bank في شكله الحديث لم يظهر إلا في القرن الرابع عشر في مدن عصر النهضة الإيطالية المزدهرة، فإن أفكار ومفاهيم الائتمان والإقراض موجودة منذ العصر القديم، كما يتكشَّف في الكتاب الحالي. [المترجم]

(٣١) نظام الحث التبادلي الطبيعي-البشري coupled natural-human system نظام يصف التفاعلات الحركية ثنائية الاتجاه بين النظم البشرية (مثل النظام الاقتصادي والاجتماعي) والنظم الطبيعية (مثل النظام الهيدرولوجي والمناخي والبيولوجي والجيولوجي). يشير هذا الترابط إلى فكرة أنه لم يعد من الممكن التعامل مع تطور النظم البشرية والبيئية بمعزل عن بعضها البعض، مقارنة بالحقب المبكرة من التاريخ البشري التي كانت التفاعلات الطبيعية-البشرية فيها ضعيفة وأحادية الاتجاه. [المترجم]

مناقشة عامة لتاريخ الألف الأول قبل الحقبة المشتركة ومراجعة موجزة للمصادر المتاحة لنا لفهم اقتصادات البحر الأبيض المتوسط[٣٢]، ثم أتحول في الفصل الثالث بعنوان "الزمان والمكان والجغرافيا واقتصادات البحر الأبيض المتوسط القديم" إلى أحد أصعب جوانب دراسة الاقتصادات القديمة، وهو ما أسميه مشكلات تعيين الحدود الزمنية–المكانية. وفي الباب الثاني بعنوان "البيئة والمؤسسات"، أتحول إلى فحص المؤسسات الأساسية في اقتصادات البحر الأبيض المتوسط، وأناقشُ حركية dynamics الحث التبادلي بين البيئة والمؤسسات الاقتصادية، والعوامل التطورية التي وقفت وراء التغير المؤسسي. تشكل الزراعة والعمل، وهما موضوع الفصل الرابع، الأساس لكل الاقتصادات ما قبل الحديثة، وتوضح دراسة مقارنة موجزة هنا أنه كان هناك العديد من الحلول المؤسسية لتنظيم الإنتاج الزراعي، وهي حلول اعتمدت في معظمها على الهِبات البيئية والظروف المناخية المتفاوِتة لحوض البحر الأبيض المتوسط، وهي الظروف التي أتقصاها بمزيد من التفصيل في الفصل الخامس بعنوان "حدود الاقتصادات ما قبل الحديثة: البيئة والمناخ والتغير المناخي"، الذي أناقشُ فيه العلاقة بين الحدود المادية لعالم البحر الأبيض المتوسط والمناخ والتغير المناخي والسكان وعلاقتها بالاقتصادات السياسية للعالم القديم[٣٣]، ودور التغير المناخي باعتباره إحدى القوى الدافعة للتغيير الاجتماعي. على أنني أعتبرُ هذا الفصل عملا تجريبيا، إذ يستخدم بيانات أولية ويقدم بعض الاقتراحات، ولذلك لن يروق الموضوع للكثير من المؤرخين، لكني أتذرع بأننا ما نزال في أول عهدنا بفهم التغير المناخي والاستجابات البشرية له في التاريخ القديم، وأنه لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يجب إنجازه، فضلاً عن أن بيانات المناخ القديم تتسم بالصعوبة والإسهاب، وأقل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن هو أن تحليل التغيرات الناتجة عن التغير المناخي على عدة نطاقات مسألة ليست يسيرة، وأن استخدام بيانات المناخ القديم يتطلب الكثير من القراءة والتفكير في مجال جديد على المؤرخين. ثم يتقصى الفصل السادس الأفراد والمنازل باعتبارهم فاعلين اقتصاديين، وهنا أناقش

(٣٢) الفينيقيون Phoenicians هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون على الكنعانيين، وهم شعب بحري سامي قديم غير معلوم الأصل تمركزت حضارته بين القرنين الخامس عشر والثالث قبل الحقبة المشتركة على سواحل فلسطين ولبنان وسورية الحالية، وامتدت إلى قرطاج في تونس الحالية، يردهم المؤرخون المسلمون إلى العرب البائدة، تحديدا العمالِيق. [المترجم]

(٣٣) الاقتصاد السياسي Political economy هو دراسة الإنتاج والتجارة وعلاقتها بالقانون والعادة والحكم وتوزيع الدخل القومي والثورة، وهو تحديدا فن تحصيل الإيرادات للدولة أو جباية الأموال لصالح الحكومة. [المترجم]

بإيجاز السكان والعلاقة بينهم وبين "الدولة" التي شهدت تنوعا كبيرا في الأحجام والحلول المؤسسية السياسية. ثم يأتي الفصل السابع بعنوان "تطور الفكر الاقتصادي في العالم القديم: النقد والقانون والمؤسسات القانونية"، ليتقصى كيف تطورت التغيرات في مفهوم النقد والنظام القانوني بالتلازم مع تزايد أنماط التلاقح الثقافي. أما الفصل الثامن بعنوان "النمو والابتكار والأسواق والتجارة"، وهو الفصل الكبير الأخير، فيناقش المجالات الأساسية للاقتصادات القديمة التي كانت أساسية لفهمها، وكانت- وما تزال- خلافية ومحل جدل محتدم. وأخيرا، فقد أردتُ بكل فصل في الكتاب أن يكون مستقلا، ولذلك يوجد بعض التداخل في التغطية بين الفصول.

شكر وإهداء

من أحب الأشياء إلى قلبي في مشروع تأليف كتاب هو أن أشكر من ساعدوني بطريقة أو بأخرى، لأن ذلك يذكّرني، إن كنتُ في حاجة إلى تذكير، بالأصدقاء الأجلاء والزملاء المتعاونين الذين قرأوا مسودات العمل وانتقدوها وأعادوها إليّ ومعها آراء قاسية أو مُلطفة أو مخففة، أو قدموا النصح بشكل أو بآخر. وفي هذا الباب، أعلن امتناني الكبير إلى غوجكو بارجاموفيك Gojko Barjamovic وبيتر بدفورد Peter Bedford ومانفريد بيتاك Manfred Bietak وجون بروك John Brooke وألين بريسن Alain Bresson وآري براين Ari Bryen وبروس كامبل Bruce Campbell وويلي كلاريس Willy Clarysse وجون كولينز John Collins ومارك ديبو Mark Depauw وبول إردكامب Paul Erdkamp وكريستل فيشر بوفت Christelle Fischer-Bovet وتِم غينين Tim Guinnane وكايل هاربر Kyle Harper وإيريك هيلت Eric Hilt وفِل هوفمان Phil Hoffman ودان هوير Dan Hoyer وألكسندر جونز Alexander Jones ومايكل جورسا Michael Jursa وجيسيكا لامون Jessica Lamont ونعومي لامورو Naomi Lamoreaux ونويل لينسكي Noel Lenski وكولن مكافري Colin Macaffrey وأندرو مونسن Andrew Monson وخوان كارلوس مورينو غارسيا Juan Carlos Moreno García وغراهام أوليفر Graham Oliver وكارين رادنر Karen Radner وجيرد روبن Jared Rubin وديفيد اسكيلي David Skelly ودورثي تومسن Dorothy Thompson وغاري تومليسن Gary Tomlinson ودان توبكينز Dan Tompkins ومات توي Matt Toohey وفرانشيسكا تريفيلاتو Francesca Trevellato وبيتر تيرتشن Peter Turchin وكاتلين فاندورب Katelijn Vandorpe وكون فيربوفن Koen Verboven وهارفي وايس Harvey Weiss. كما أشكر كريغ جون Craig John (منظمة أدلاء الجبال الدولية International Mountain Guides) واسكوت تريبي Scott Tribby (منظمة أنظمة رانفون للتدريب Ranfone Training Systems) وآفي سزابيرو Avi Szapiro (مطعم رويا Roia Restaurant) الذين ساعدوني روحياً وجسدياً. وأشكر فرانسوا جيراردين François Gerardin وآندي هوغان Andy Hogan طالبي

الدراسات العليا الممتازين اللذين قدما المساعدة والدعم على طول الطريق، واللذين أتطلع إلى رؤية نجاحهما المهني خلال السنوات القادمة.

كما أنني أدين بشكر خاص إلى صديقي فرانسيس لودلو Francis Ludlow من كلية ترينتي Trinity College في دبلن، ففي مساء حاسم قبل عامين حول القهوة بعد عشاء لمجموعة المناخ والتاريخ، سألته إن كان يعرف أي بيانات مناخية يمكن أن تعزز فهمي للارتباط بين جريان نهر النيل والاضطراب الاجتماعي في مصر خلال الحقبة البطلمية، وعندما أخرج حاسوبه النقال الهائل المثقل ببيانات المناخ العالمي من كل نوع، وأراني بيانات العينات اللبية الجليدية التي كانت على وشك النشر، تغير مسار بحثي في الحال[1]. كان فرانسيس متعاونا وكريما في عدة جوانب، منها أنه أمدني بمهارته في تمثيل البيانات التي سترونها في هذا الكتاب، وكان مفيدا على وجه التحديد للفصل الخامس، وفي مساعدتي في بناء فريق كبير في الخبرة المناخية، نعمل ضمنه معا منذ أكثر من سنتين في عمل مثير يسعى لدمج المناخ والأرشيفات البشرية. كما أنني مدين بالشكر إلى شركائنا في هذا المشروع بِل بوس Bill Boos وجينيفر مارلون Jennifer Marlon ومايكل سيغل Michael Sigl وجِم استاغ Jim Stagge وزان استاين Zan Stine وترود استرولفمو Trude Storelvmo.

استضافني جو مكونيل Joe McConnell من معهد بحوث الصحراء في رينو Desert Research Institute in Reno بحرارة لأسبوع في بيته ومختبره البحثي للعينات اللبية الجليدية في رينو في نيفادا Nevada. كان العمل في مختبره ومعرفة كيف تُولَّد البيانات المناخية من العينات اللبية الجليدية، بدايةً من تحضير العينات اللبية الجليدية في الغرفة الباردة إلى رؤية الناتج من المطياف الكتلي البلازمي بالتقارن الحثي[2]، خبرة رائعة حقا. كما أنني ممتن لمونيكا أرينزو Monica Arienzo وروجر كرايدبيرغ Roger Kreidberg على تعليمي الكثير حول أعمالهما والوسائل المدهشة في معهد بحوث الصحراء.

---

(١) العينة اللبية الجليدية ice-core عينة تؤخذ عادة من لب صفحة جليدية أو جبل جليدي، تراكم ارتفاعه عبر طبقات جليدية تكونت سنة بعد أخرى، واحتفظ سطح كل منها ببعض أشكال الحياة في زمنه، من أعماق تصل إلى ميلين، تكشِف عن الخصائص الفيزيائية للجليد والمواد التي حفظت فيه، بغرض إعادة بناء المناخ على مدار المدى العمري للب الجليدي. [المترجم]

(٢) المطياف الكتلي البلازمي بالتقارن الحثي inductively coupled plasma mass spectrometers نوع من القياس الطيفي الكتلي mass spectrometry قادر على التعرف على الفلزات واللافلزات ذات التركزات الضئيلة التي تصل إلى جزء من كدريليون جزء (واحد إلى يمينه ١٥ صفراً). [المترجم]

وقد تمكنتُ من اختبار عملي في صورته الأولية بفضل الدعوات التي تلقيتها من تاكو تربسترا Taco Terpstra للتحدث في ورشة عمل التاريخ الاقتصادي في جامعة نورثويسترن Northwestern University، ومن كريستل فيشر بوفت من جامعة كاليفورنيا الجنوبية، ومن جون هالدن John Haldon من جامعة برينستون Princeton، ومن غريغ وولف Greg Woolf للتحدث في حلقة التاريخ القديم الدراسية في كلية يونفيرستي كوليدج في لندن جنبا إلى جنب مع فرانك لودلو. إلى هؤلاء وإلى الحضور في هذه الفعاليات أتوجه بالشكر على الأسئلة القوية والاقتراحات القيّمة.

وثمة مراجعان غير معلومين لي، من الجنود المجهولين في النشر الأكاديمي، لفتا انتباهي إلى الكثير مما يحتاج إلى إعادة نظر، وأسهما بقوة في تحسين المنتَج النهائي، وأنا مدين لهما بالشكر على العناية التي أظهراها في قراءة مخطوطة سابقة غير مكتملة من الكتاب والتعليق عليها، كما أشكر شركة بوبي غراهام BG على المساعدة التحريرية.

ومن دواعي سروري- أخيرا- أن أتوجه بالشكر مرة أخرى إلى روب تمبيو Rob Tempio من دار جامعة برينستون للنشر Princeton University Press على النصح والتوجيه الحكيمين. وقد كانت إيميلي بيكماير Emily Bakemeier من مكتب رئيس الجامعة وتمار جندلر Tamar Gendler عميدة كلية الآداب والعلوم داعمين لأبعد الحدود منذ وصولي إلى جامعة يل، وهو ما ترك أثرا عميقا على أعمالي. ولا أنسى أبدا الدعم الذي وجدته من الإدارة ومن زملائي ومن الطلاب الرائعين. إنها لبهجة وتميّز أن تدرّس في هذا المكان الرائع.

أهدي هذا الكتاب لأستاذين كبيرين، هما كارل بوتزر الذي أثرت أعماله فيّ بقوة وأنا طالب دراسات عليا صغير، ومارك باغاني Mark Pagani الذي رحب بي بدفء في عالمه للمناخ القديم ودعم عملي في جامعة يل بطرق مختلفة، لقد كان رحيله المفاجئ صدمة لكل من جامعة يل وجماعة المناخ القديم.

اسكافتفلسيوكول Skaftafellsjökull، أيسلندا

المحتويات

مقدمة المترجم.....هـ

تصدير..... ك

شكر وإهداء.....ج ج

الإطار الزمني للأحداث..... زز

الباب الأول: التاريخ والنظرية..... ١

مقدمة: التاريخ والنظرية والمؤسسات: مقاربة الاقتصاد القديم..... ٣

الفصل الأول: اتجاهات جديدة وسياقات أوسع لدراسة الاقتصادات ما قبل الحديثة.....٢٥

الفصل الثاني: الاقتصادات القديمة: مراجعة من التجار الفينيقيين حتى ظهور
الإمبراطورية الرومانية.....٥٩

الفصل الثالث: البرونز والحديد والفضة: الزمان والمكان والجغرافيا واقتصادات البحر
الأبيض المتوسط القديم ١٠٩

الباب الثاني: البيئة والمؤسسات.....١٥٧

الفصل الرابع: الزراعة والعمل ١٥٩

الفصل الخامس: حدود الاقتصادات ما قبل الحديثة: البيئة والمناخ والتغير المناخي ١٩٧

الفصل السادس: مَوْلِد "الإنسان الاقتصادي": السكان والدولة والمنزل والفرد ٢٥٥

الفصل السابع: نشوء الفكر الاقتصادي في العالم القديم: النقد والقانون والمؤسسات القانونية ٢٨٣

الفصل الثامن: النمو والابتكار والأسواق والتجارة ٣١٧
الفصل التاسع: استنتاجات ٣٨١
الملاحق **٣٩٣**
المراجع **٤٨٤**
ثبت المصطلحات **٥٤٧**
أولاً: عربي-إنجليزي ٥٤٧
ثانياً: إنجليزي-عربي ٥٧٢
كشاف المصطلحات ٥٩٧